﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يونس: 43]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقةُ بينَ السّماعِ والمُعاينةِ، وبُلوغُ المُشركينَ غايَةَ الضَّلالِ، بتعاميهم عمّا يُسمعُ أو يُقالُ

ذَكَرَ اللهُ ﷻ تَقسيمَ المُشركينَ باعتبارِ تَلقّيهم مِنَ النَّبيِّ ﷺ إلى قِسمَين:

أحدُهما: مَن يَحضرُ مَجلِسَهُ، ويَستَمِعُ كلامَهُ، وهُمُ المَذكورونَ في الآيةِ المتقدِّمةِ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [يونس: 42].

والآخرُ: مَن لا يَحضرُ مَجلِسَهُ، وإنَّما يَتوسَّمونَهُ، ويَنظرونَ سَمتَهُ، وهُمُ المذكورونَ في هذه الآيةِ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

وكلا الحالَين مِن مَسالِكِ الاهتداءِ؛ إذْ سماعُ كلامِ النَّبيِّ ﷺ، والنَّظرُ في هَديه وسَمتِه؛ من أسبابِ الهدايةِ، فلمّا ذَكَرَ اللهُ سُبحانَه أنَّ هؤلاءِ المُشركينَ قد بلَغوا الغايَةَ في الضَّلالِ؛ إذْ أصرّوا على الكُفرِ مع سَماعِهم كلامَ النَّبيِّ ﷺ؛ أتبعَه ببيانِ عدمِ انتفاعِهم بمُعاينةِ ذاتِ النَّبيِّ ﷺ، وما ذاك إلّا لشدَّةِ بُغضِهم إيّاه وحَسدِهم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْعُمْىَ﴾: أصلُ (عمي): يدُلُّ على سَترٍ وتَغطيَةٍ. مِن ذَلِكَ العَمَى: ذهابُ البَصَرِ كُلِّه، والفعلُ منه عَمِيَ يَعمَى عَمًى[2]، يُقالُ: عَمِيَ الرَّجُلُ: إذا فَقَدَ بَصَرَه فلا يَرى شيئًا. ويُطلَقُ العَمَى على فَقدِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/177.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عمي).

البَصيرَةِ، يُقالُ: عَمي فُلانٌ عَن رُشدِهِ، وعَمي عليه طريقُه إذا لم يهتدِ لِطريقِهِ، ورجلٌ عَمٍ، وقومٌ عَمون. وكلَّما ذَكَرَ اللّه ﷻ العَمَى في كتابِه فذمَّه يُريدُ عَمَى القلبِ[1]، وهذا هو المقصودُ مِنَ العَمَى في الآيةِ.

2) ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾: أَصلٌ مفردة (البَصَر): وُضوحُ الشَّيءِ، وبَصُرَ الطَّريقُ؛ أي: استبانَ ووَضُحَ، والبَصيرَةُ: البُرهانُ[2]. ويُطلَقُ البَصَرُ على حاسَّةِ العينِ، تقولُ: جاءَ كَلَمحِ البَصرِ؛ أَي: كلمحِ العينِ، والجَمعُ: أبصارٌ[3]. والإبصارُ: الرُّؤيَةُ والنَّظَرُ بالعَينِ[4]. والبَصيرُ والمُبصِرُ: الناظِرُ لِغيرِهِ، وضِدُّه الأعمَى. ويأتي البَصَرُ أيضًا بمعنى: العِلمِ والإدراكِ، وهيَ الرُّؤيَةُ بالقلبِ، كقولِكَ: بَصُرتُ بالشَّيءِ إذا عَلِمتَه وأدرَكتَهُ، والبَصيرَةُ: قوَّةُ الإدراكِ والفِطنَةُ والعِلمُ، والجَمعُ: بَصائِرُ[5]. والمقصودُ بالبَصَرِ في الآيةِ: رُؤيَةُ العَينِ للأشياءِ المَحسوسَةِ. ويعني البصيرةَ أيضًا؛ وهي: نورُ القَلبِ الَّذي يُستبصَرُ بِهِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مَن نَظَرَ بعينِه، ولـم يُبصِرْ بقلبِه، فإنَّه لا ينفعُه بلاغٌ، ولا تُؤثِّرُ فيه مَوعِظَةٌ

تشير الآية إلى جماعة أخرى من المدعوّين، لها موقفٌ آخر مع النَّبيِّ ﷺ، وقد سَمعتِ القُرآنَ، ثمَّ جعلَت تنظرُ فيه بقلوبٍ مريضةٍ، وعقولٍ سَقيمةٍ، فلم تهتدِ إلى خيرٍ، ولم تتعرفْ إلى حقٍّ، فيخبرُ الحقُّ ﷻ عنهُم بأنَّ مِنهُم مَن ينظُرُ إليك - يا مُحمَّدُ - ولا يَنتفعونَ بذلك النَّظَرِ، أفأنتَ تستطيعُ أن تُرشِدَ العُميَ الَّذين لا بَصرَ لهم ينتَفِعونَ به؟! فكذلك لا تَقدرُ على هِدايةِ هؤلاء؛ لأنَّهُم وإنْ كانوا مُبصِرينَ بأعينِهِم في الظّاهرِ، فَهُم غيرُ مُبصِرينَ بقلوبِهِم في

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عمي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بصر).
(3) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (بصر).
(4) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 247.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (بصر)، وإبراهيم مصطفى، المعجم الوسيط: 1/59.

الحقيقةِ، فلا تستطيعُ هدايتَهُم لِفقدِهم نعمةَ البصيرةِ المُدركةِ والعقلِ المُدرِكِ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ۝٤٦﴾ [الحجّ: 46][1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ الوصلِ في: ﴿وَمِنۡهُم﴾:

تَـتـمـيـمُ ذِكـرِ أحوالِ المُشرِكينَ في تَلَقّيهِم مِنَ النَّبيِّ الأمينِ

جاءَت هذه الآيةُ معطوفةً على سابقَتِها، وهي قولُه سبحانَه: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ﴾ [يونس: 42]، وبينَ الجملتينِ التَّوسُّطُ بينَ الكمالَين؛ إذ كِلتا الجملَتَينِ خبريَّةٌ، وبينَهُما مُناسبَةٌ في اللَّفظِ والمعنى؛ فأمّا التَّناسبُ في اللَّفظِ فإنَّ كُلَّ واحدةٍ مِنَ الجملتينِ إسميَّةٌ، واشتركتا في المُسنَدِ إليه ﴿مَّن﴾، وفي مُتعلَّقِ المُسنَدِ ﴿وَمِنۡهُم﴾، وإنَّما اختلفتا في مُتعلَّقِ ذلك، وأمّا التَّناسبُ في المعنى فلأنَّ مَضمونَ الجملتينِ في ذِكرِ أحوالِ المُشركينَ في تَلقّيهم مِنَ النَّبيِّ ﷺ، والمرادُ بيانُ كونِهم مطبوعًا على قُلوبِهم، بحيثُ لا سبيلَ إلى إيمانِهم، فانضمَّ إلى ذلكَ عَدَمُ البَصرِ والبَصيرَةِ، فإنَّ المَقصودَ مِنَ الإبصارِ الاعتبارُ[2]، فانسَدَّ عليهم بابُ الهُدَى، ولِتَشريكِهم في الحُكمِ عليهم بعدمِ الانتفاعِ وعدمِ الاهتداءِ.

دِلالةُ حرفِ الجرِّ (مِنْ) في شبهِ الجملةِ: ﴿وَمِنۡهُم﴾:

إنصافُ القرآنِ الكريمِ في الحُكمِ على المُخالِفينَ

حرفُ الجرِّ (مِنْ) في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ﴾ دالٌّ على التَّبعيضِ؛ أي: بعضُ هؤلاءِ المذكورينَ مَن يحضرُ مَجلسَكَ، ويستَمِعُ كلامَكَ، ولكنَّه لا ينتفعُ.

وفي التَّعبيرِ بحرفِ التَّبعيضِ دلالةٌ على إنصافِ القرآنِ الكريمِ مع المُخالِفينَ، فلا يُعَمِّمُ الحُكمَ في مَقامٍ يَقتضي التَّخصيصَ، وفيه تعليمُ العبادِ الإنصافَ كذلكَ.

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1020، والزّحيليّ، التّفسير المنير: 11/184.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/148.

دِلالةُ تعريفِ المُسنَدِ إليه بالموصوليَّةِ في ﴿مَّن﴾:

المُبالغةُ في الإنكارِ على مَن عايَنَ الأدلَّةَ، واستَمَرَّ في ضلالِهِ

﴿مَّن﴾ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ اسمٌ موصولٌ مُشتَرَكٌ، وهو هُنا بمعنى (الَّذي) لِغيرِ واحدٍ، وفي التَّعبيرِ بالموصولِ وصِلَتِه تمهيدٌ لِلمُبالغةِ في الإنكارِ عليهم؛ حيث إنَّهم عاينوا أدلَّةَ النُّبوَّةِ وشواهدَها، ولم تَسرِ الهدايَةُ إلى قلوبِهِم، لا لضعفِ الوارِدِ، وإنَّما لقوَّةِ المانعِ في قلوبِهِم.

نُكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿وَمِنْهُم﴾:

التَّمييزُ ابتداءً بينَ مَحالِّ الألفاظِ مِن بليغِ البيانِ

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿وَمِنْهُم﴾ مِن قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾؛ مشاكَلَةً لأسلوبِ التَّقسيمِ الَّذي صُدِّرَت به الآيةُ المُتقدِّمَةُ، وهي قولُه سُبحانَهُ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾، ولِلتَّنبيه مِن أوَّلِ الأمرِ على أنَّه خَبَرٌ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارِعِ ﴿يَنظُرُ﴾:

توبيخُ المُشركينَ على ضَعفِ بَصائِرِهِم، وعدمِ قصدِهِمُ الانتفاعَ بالهدى

جاءَ التَّعبيرُ بالفعلِ المُضارِعِ ﴿يَنظُرُ﴾ مِن قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾؛ للدّلالةِ على تَجَدُّدِ النَّظرِ وحُصولِه مِنهُم شيئًا فشيئًا، فهو نَظَرٌ مُتجدِّدٌ، وفي هذا: النِّداءُ عليهِم بالتَّوبيخِ والتَّقريعِ؛ حيثُ تكرَّرتْ مِنهُم موجِباتُ الهدايَةِ؛ وهي النَّظرُ في ذاتِ النَّبيِّ ﷺ ومُشاهدَةُ هديِه وسَمتِه، ولم يكُنْ هذا التَّكرارُ موجِبًا لِهدايتِهِم؛ لِشدَّةِ قساوَةِ قلوبِهِم، وعدمِ قصدِهِمُ الانتفاعَ بهذا النَّظرِ المُتكرِّرِ. وفي التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ، وهو دالٌّ على الحالِ، مع أنَّ هذا النَّظرَ وَقَعَ مِنهُم قبلُ؛ لاستحضارِ الصّورةِ الماضيةِ كأنَّها واقعَةٌ في الحالِ؛ تذكيرًا بقساوةِ قلوبِهِم وضعفِ بصيرَتِهِم.

ولَم يقعِ التَّعبيرُ باسمِ الفاعِلِ، فلم يُرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ: (ومِنهُمُ النّاظرُ إليكَ)؛ لأنَّ اسمَ الفاعلِ دالٌّ على ثُبوتِ النَّظرِ واستمرارِه على حالٍ واحِدَةٍ.

النُّكتةُ في إفرادِ ضميرِ ﴿يَنظُرُ﴾:

قِلَّةُ النّاظِرينَ إلى النُّبوَّةِ مِنَ المُشرِكينَ مُقارَنَةً بالمُستَمِعينَ

جاءَ الضمير في ﴿يَنظُرُ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ مُفرَدًا حَملًا على لَفظِ (مَنْ)، والنُّكتَةُ في ذلك الإيماءُ إلى قِلَّةِ النّاظِرينَ أو عدمِ تَمَكُّنِهم مِنَ النَّظرِ إليكَ، بخلافِ الآيةِ المُتقدِّمةِ، وهي قولُ اللّه ﷻ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾، فقد جُمِعَ الضَّميرُ ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ حَملًا على المَعنَى، وذلك للإيماءِ إلى كثرةِ المُستَمِعينَ إليه [1] ﷺ.

قال الآلوسيُّ: "وجُمِعَ الضَّميرُ الرّاجِعُ إليهِ؛ رِعايَةً لجانبِ المعنى، كما أُفرِدَ فيما بَعدُ رِعايَةً لجانبِ اللَّفظِ، ولعلَّ ذلك للإيماءِ إلى كَثرةِ المُستَمِعينَ بناءً على عدمِ تَوَقُّفِ الاستِماعِ على ما يَتَوَقَّفُ عليه النَّظرُ مِنَ الشُّروطِ العاديَّةِ أو العَقليَّةِ"[2].

بَراعةُ الحذف: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾:

طَيُّ ما دَلَّ السّياقُ عليهِ؛ اقتِصادًا في اللَّفظِ، وإيجازًا في التّركيبِ

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ إيجازٌ بالحذفِ، وقد دلَّ على المحذوفِ سياقُ التَّقسيمِ بالنِّسبَةِ للتَّلقّي منه ﷺ، والتَّقدير: (ومنهُم مَن ينظرُ إليك، ولا يَنتفعونَ بذلكَ)، كما قال ابنُ عاشور: "وقد أفادَ سياقُ الكلامِ أنَّهُم يَستَمِعونَ إليهِ، ويَنظُرونَ إليهِ، ولا يَنتَفِعونَ بذَلِكَ مِن جِهَةِ أنَّ المُستَمِعينَ إليه والنّاظِرينَ إليه هُنا استَمَرّوا على الكُفرِ، كما دَلَّ عليه قوله: ﴿وَمِنْهُم﴾ في المَوضِعَين، فَطويَت جُملَةُ: (وَلا يَنتَفِعونَ) أو نَحوها لِلإيجازِ بدلالةِ التَّقسيم"[3].

سِرُّ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ مع تأخيرِ المُسندِ إليه:

استِمرارُ المُشرِكينَ على ضلالِهِم، مَعَ تَوافُرِ أسبابِ الهِدايةِ

قولُ اللّه ﷻ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ جملةٌ اسميَّةٌ، تأخَّرَ فيها المبتدأُ، وفي التَّعبيرِ بها إشعارٌ بأنَّهُم استمرّوا في النَّظرِ إليه

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/161.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/125.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/177.

وإلى أدلَّةِ نبوَّتِه، إلّا أنَّه لم تحصلْ مِنهُم هِدايةٌ، بل استمرّوا على انحرافِهم وكُفرِهم.

عِلَّةُ الفَصلِ: ﴿أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ﴾:

فُصِلَت هذه الجملةُ عمّا قبلَها؛ لاختلافِهما خبرًا وإنشاءً، فبَينَ الجملتين كمالُ الانقطاعِ، والجملةُ استئنافٌ ابتدائيٌّ يُرادُ به نفيُ انتفاعِ المُشركينَ الّذين عَلِمَ اللّه استمرارَهُم على الشِّركِ بشيءٍ مِنَ الأدلَّةِ والبراهينِ الّتي يُعاينونَها بعينِ البصَرِ، أو بعينِ البصيرَةِ، إن وُجدَت فيهِم بَقيَّتُها.

عــدمُ انـتِـفـاعِ مَـن عَـلِـمَ اللهُ تعالى موتَه على الـشِّــركِ، بما جاءَه مِنَ الحقِّ

ويجوزُ أن يكونَ بينَ الجملَتينِ كمالُ الاتِّصالِ، وذلك إذا حُمِلَ الاستفهامُ في قولِه تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ﴾ على معنى النَّفي، فتكونُ الجملةُ إنشائيَّةً في لفظِها، ولكنَّها خبريَّةٌ في معناها، ومِنَ المُتقرِّرِ في بابِ الوصلِ والفصلِ أنَّ العِبرةَ في الجملِ بالمعاني، فيكونُ في الآيةِ تعقيبُ جملةٍ خبريَّةٍ على أخرى خبريَّةٍ، بينَهما اتِّحادٌ في أصلِ المَعنَى، وذلك لأنَّ في قولِه سُبحانَهُ: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ﴾ محذوفًا، والتَّقديرُ: ومنهُم مَن ينظُرُ إليكَ فلا يَنتفعونَ، ثُمَّ قوِّيَ هذا المعنَى، وأُكِّدَ بقولِه سُبحانَهُ: ﴿أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ﴾؛ أي: أنتَ لا تَهديهِم؛ إذ كانوا عُميَ القلوبِ.

دِلالَةُ الاستِفهامِ في: ﴿أَفَأَنتَ﴾:

انـعِـدامُ العقلِ والـتَّـبَـصُّـرِ عندَ المُشرِكينَ أودى بهِم إلى التَّهلُكةِ

الهمزةُ في ﴿أَفَأَنتَ﴾ في قوله تعالى ﴿أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ﴾ للاستفهامِ، والاستفهامُ ههنا ليسَ جاريًا على أصلِ دلالتِه مِن إرادةِ طلبِ العِلمِ بشيءٍ لَم يكُنْ مَعلومًا مِن قبلُ؛ لأنَّ اللّه سُبحانَه عليمٌ بكلِّ شيءٍ لا تَخفى عليه خافيَةٌ، وإنَّما الاستفهامُ يُرادُ به التَّعَجُّبُ مِن حالِهم، حيثُ جَمَعوا مع عَماهُم عدمَ التَّبَصُّرِ، "وبُنِيَ على ذلكَ استفهامٌ عن التَّمَكُّنِ مِن إسماعِ هَؤُلاءِ الصُّمِّ وهَدي هؤلاءِ العُمي، مَعَ أنَّهُم قد ضَمّوا إلى صَمَمِهِم عدمَ العقلِ، وضَمّوا إلى عَماهُم عدمَ التَّبَصُّرِ...فينظرونَ أعمالَه وسيرتَهُ، ولا يَهتَدونَ بِها"[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/178.

ويجوزُ أن يكون الاستفهامُ مُرادًا به النَّفيُ؛ أي: أنتَ لا تَهدي العُميَ، ولا تنافيَ بين دلالةِ الاستفهام على التَّعجُّبِ ودلالتِه على النَّفي، فيُحمَلُ اللَّفظُ على المعنيينِ معًا؛ إذِ النِّكاتُ البلاغيَّةُ تتوارَدُ ولا تتزاحَمُ.

بلاغةُ الحذفِ في سؤالِه عن هِدايةِ العُمي:

عـدمُ اهـتـداءِ المُشركينَ، ليسَ ضَعفَ الحَقِّ، وإنّما انغلاقُ مَنافذِ قُلوبِهم

في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿أَفَأَنتَ تَهۡدِى﴾ إيجازٌ بالحذفِ، والتَّقدير: ومِنهُم مَن ينظرُ إليكَ ولا يَنتفعونَ، أفتلومُ نفسَكَ في أمرِ هِدايتِهم، وتَجِدُ في نفسِكَ مِن أجلِهم، أنت لا تهدي العُميَ، فعدمُ اهتداءِ هؤلاءِ الضَّربِ مِنَ النّاسِ ليسَ لقصورٍ في الوارِدِ عليهِم، وإنَّما لخللٍ فيهم أنفُسِهم، وفي هذا تَسليةٌ لَه ﷺ، وألّا يَكتَرِثَ بعدمِ قَبولِهم، فإنَّ الهدايةَ إنَّما هي للّه تعالى، والمُرادُ "أنَّهُم عُميٌ فلا تَقدِرُ على هدايَتِهم؛ لأنَّ السَّبَبَ الَّذي يُهتَدَى به إلى رُؤيةِ الدَّلائلِ قد فَقَدوهُ، هَذا وَهُم مَعَ فَقدِ البَصرِ قَد فَقَدوا البَصيرَةَ، إذ مَن كانَ أعمَى فإنَّه مُهديه نورُ بَصيرَتِه إلى أشياءَ بالحَدسِ، وهذا قد جَمَعَ بينَ فقدانِ البَصرِ والبَصيرَةِ، وهذه مُبالغةٌ عَظيمةٌ في انتفاءِ قَبولِ ما يُلقَى إلى هؤلاءِ، إذْ جَمَعوا بينَ الصَّمَمِ وانتفاءِ العقلِ، وبينَ العمى وفَقدِ البصيرَةِ"[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿ٱلۡعُمۡىَ﴾:

المَقصودُ مِنَ الإبصارِ الاعتِبارُ والاستِبصارُ، ومَن لا يهتدي هو بِمَنزِلَةِ الأعمى

شُبِّهَ المشركونَ بالعُميِ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿أَفَأَنتَ تَهۡدِى ٱلۡعُمۡىَ﴾؛ لِتَعاميهِم عن الحَقِ وعدمِ انتفاعِهم بالبصَرِ، فحُذِفَ المشبَّه وصُرِّحَ بالمشبَّه به على طريقةِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ الأصليَّةِ، "والمُرادُ تَسليَةُ النَّبيِّ ﷺ؛ أي: كما لا تَقدِرُ أن تُسمِعَ مَن سُلِبَ السَّمعَ، ولا تَقدِرُ أنْ تَخلُقَ للأعمَى بَصَرًا يَهتَدي بِهِ، فكذَلِكَ لا تَقدِرُ أنْ توَفِّقَ هؤلاءِ للإيمانِ"[2]، وإنَّما قال: ﴿تَهۡدِى ٱلۡعُمۡىَ﴾ تربيَةً لإنكارِ هدايَتِهم،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/161.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/346.

وإبرازًا لِوُقوعِها في مَعرِضِ الاستحالةِ، وقد أَكَّد ذلكَ حيثُ قال: ﴿وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ﴾؛ أي: ولَو انضمَّ إلى عدمِ البَصرِ عدمُ البَصيرَةِ، فإنَّ المقصودَ مِنَ الإبصارِ الاعتِبارُ والاستِبصارُ، والعُمدَةُ في ذلك هيَ البَصيرَةُ[1]، وفي جَعلهم عُميًا إيماءٌ إلى أنَّه لا يَقدِرُ على إسماعِهم وهدايَتِهم إلّا اللّه ﷻ، كما لا يَقدِرُ على رَدِّ الأصَمِّ والأعمَى، المَسلوبِ العَقلِ، حَديدي السَّمعِ والبَصَرِ، راجِحي العَقلِ، إلّا هو وحدَهُ[2].

الانـصـرافُ عن الـحَـقِّ ومَـنـهَـجِ الـصَّـوابِ ضربٌ مِـــن ضُـــروبِ العَمى

دِلالةُ (ال) في ﴿ٱلۡعُمۡيَ﴾:

اللّامُ في ﴿ٱلۡعُمۡيَ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَفَأَنتَ تَهۡدِى ٱلۡعُمۡيَ﴾ للعهدِ العِلميِّ، والمُرادُ: المَعهودونَ بعَماهُم وانصِرافِهم عَن جادَّةِ الحَقِّ ومَنهَجِ الصَّوابِ، وهُم مَن خُلِقَتْ نُفوسهم مَفطورَةً على المُكابَرَةِ والعِنادِ وبُغضِ مَن أنعَمَ اللّه عليه وحدَهُ، فكانَت هَذِه الخِصالُ مِن شيَمِهِم، فحالَتْ بَينَهُم وبَينَ التأثُّرِ بالمُبصراتِ.

نُكتةُ تقديمِ المُسنَدِ إليه على المُسنَدِ الفِعليِّ:

شِـــدَّةُ حِـرصِ النَّبيِّ ﷺ على هِدايَةِ الخَلقِ

في قولِ اللّه تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تَهۡدِى﴾ قُدِّمَ المُسنَدُ إليه (أَنْتَ) على المُسنَدِ الفعليِّ ﴿تَهۡدِى﴾، تقويةً للإنكارِ المُستفادِ مِنَ الاستفهامِ وتأكيدًا له، ووجه ذلك أنَّ فيه تَكرارَ النِّسبَةِ؛ وذلك أنَّ فِعلَ الهدايَةِ ﴿تَهۡدِى﴾ مُسنَدٌ إلى الضَّميرِ المنفصِلِ (أَنتَ)، ومُسنَدٌ أيضًا لِلضَّميرِ المُستَتِرِ فيهِ، وهذا وجه إفادَةِ تقديمِ المُسندِ إليه على المُسندِ الفعليِّ التَّقوية والتَّأكيد، وفي هذا إيماءٌ إلى شدَّةِ حرصِ النَّبيِّ ﷺ على هدايتِهم.

دِلالةُ الواو في ﴿وَلَوۡ﴾:

تَـعَـذُّرُ الـهِـدايَـةِ عِـنـدَ انـعـدامِ البَصَرِ والبَصيرَةِ

في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ﴾، الواوُ في ﴿وَلَوۡ﴾

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/148.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/239.

مِنَ الآيةِ الكريمةِ عاطفةٌ على ما سبقَ، والتَّقديرُ: أفأنتَ تهدي العُميَ، ولو انضمَّ إلى عدمِ البصرِ عدمُ البَصيرَةِ؟[1]، ولا مانعَ مِن حملِها على الحالِ على معنى: أفأنتَ تهدي العُميَ حالَ كونِهِم عُميَ البصيرةِ أيضًا؟

معنى ﴿وَلَوْ﴾ ودِلالَتُها:

تَحَقُّقُ أمرِ ما عِندَ وُجودِ مانِعٍ قَوِيٍّ يَقتَضي تَحَقُّقَه مَعَ مانِعٍ ضَعيفٍ، أو دونَ مانِعٍ

﴿وَلَوْ﴾ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ حرفُ شرطٍ غيرُ جازمٍ، وهي وصليَّةٌ تدلُّ على المُبالغةِ في الأحوالِ؛ وهي الَّتي يكونُ بعدَها أقصَى ما يتعلَّقُ بِهِ، والمعنَى: أفأنتَ تَهديهِم على كُلِّ حالٍ مَفروضٍ، أو أنَّ التَّقدير: تَهديهم ولَو كانوا لا يُبصِرونَ، والمعنى: "أفأنتَ تَهدي العُميَ لو كانوا يُبصِرونَ، ولو كانوا لا يُبصِرونَ؛ أي: على كُلِّ حالٍ مَفروضٍ، وقد حُذِفَتِ الأولَى في البابِ حَذفًا مُطَّردًا؛ لِدلالةِ الثّانيةِ عليها دلالةً واضِحَةً، فإنَّ الشَّيءَ إذا تَحَقَّقَ عِندَ تَحَقّق المانِعِ أوِ المانِعِ القَويِّ؛ فَلَأنْ يَتَحَقّقَ عِندَ عَدَمِه أو عندَ تَحَقّق المانِعِ الضَّعيفِ أَولَى"[2]، وفيها مِنَ التَّأكيدِ ما فيها.

بلاغةُ الكنايةِ في نفيِ البَصَرِ:

عَمى الأبصارِ أهوَنُ مِن عَمى البصائِرِ

وَرَدَ نَفيُ البَصَرِ عن المشركين في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ كنايَةً عَن كَونِهِم لا بَصائِرَ لَهُم؛ أي: لا بَصيرَةَ لَهُم يَتَبَصَّرونَ بها، والمُرادُ: لا يَتَأملونَ حَقائِقَ الأشياءَ، ولذلِكَ قيلَ: عَمَى الأبصارِ أهوَنُ مِن عَمَى البصائِرِ[3]، ودَلَّتِ الكنايةُ هُنا على تحقيقِ أنَّهُم لا يَنتَفعونَ بأبصارِهِم، وأنَّهُم لا يَعقِلونَ، ولا يَتَبَصَّرونَ حقائِقَ الأمورِ.

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/251.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/149.
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (بصر).

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإبصارُ والرُّؤيَةُ والنَّظَرُ:

الإبصارُ دالٌّ على وُضوحِ الشَّيءِ، والرُّؤيةُ تَتَمَيَّزُ بالعِلمِ بصرًا أو بصيرةً، والنَّظرُ معقدُه التَّأمُّلُ

تَختَلِفُ هذه الألفاظُ الثَّلاثةُ في أصلِ دِلالتِها اللُّغويَّةِ؛ وذلكَ أنَّ أَصلَ مادَّةِ البَصَرِ تدُلُّ على وُضوحِ الشَّيءِ، تقول: بَصُرتُ بالشَّيءِ؛ إذا صِرتَ به عالمًا بَصيرًا، وتَقولُ: أَبصرتُهُ؛ إذا رأيتَهُ. وأمّا أصلُ مادَّةِ الرُّؤيةِ فتدُلُّ على العِلمِ بالشَّيءِ، عِلمًا بواسطةِ العَينِ، أو عِلمًا قلبيًّا. وأمّا أصلُ النَّظرِ فهو تأمُّلُ الشَّيءِ ومُعايَنَتُه، فالإبصارُ دالٌّ على الوُضوحِ، والرُّؤيةُ تَتَمَيَّزُ بالعِلمِ، والنَّظَرُ يتمَيَّزُ بالتَّأمُّلِ، فثَمَّ ثلاثةُ مُستوياتٍ؛ أوَّلها: النَّظَرُ، وهو التَّأمُّلُ في الشَّيءِ ومُعايَنَتُه، ثُمَّ إبصارُهُ؛ أي: ظُهورُه لِلعينِ أوِ العقلِ، ثُمَّ رُؤيتُهُ؛ وهيَ العِلمُ به على جهةِ القَطعِ. ووردَت مادَّةُ الإبصارِ في القُرآنِ كثيرًا مُرادًا بها الإدراكُ بحاسَّةِ البَصَرِ أو الإدراكُ بالبَصيرَةِ، فَمِنَ الأوَّلِ قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٩﴾ [السجدة: 9]، ومِنَ الثّاني قولُه سُبحانَهُ: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ١٩٨﴾ [الأعراف: 198].

وقد جُمِعَ بينَ النَّظَرِ والإبصارِ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ﴾، وهي تبيِّنٌ تبيينًا لا لَبسَ فيه أنَّ النَّظَرَ مُبايِنٌ للإبصارِ، فالنَّظَرُ يَقَعُ مِنهُم، ولكنَّ الإبصارَ مَنفيٌّ عنهُم.

وذلك أنَّ النَّظَرَ يُرادُ به الصّورةُ الظّاهريَّةُ؛ فَهُم يُحَدِّقونَ بحاسَّةِ البصرِ نحوَ النَّبيِّ ﷺ، ولكنَّ هذا لم يكُن مُؤدِّيًا إلى إدراكِ الحقائقِ الإيمانيَّةِ المُتَقَضيَةِ انقيادَهُم واستِسلامَهُم لِلشَّرعِ المُنَزَّلِ.

والحاصِلُ أنَّ الإبصارَ والرُّؤيةَ والنَّظرَ تَشتَرِكُ في تأمُّلِ الشَّيءِ بقصدِ إدراكِهِ، ولكنَّ درجاتِ الإدراكِ مُختَلِفَةٌ؛ فأعلاها دَرجةً: الرُّؤيةُ؛ لاختِصاصِها بالقَطعِ واليَقينِ، ثُمَّ يَليها الإبصارُ؛ لِدِلالَتِه

على الوضوحِ والظُّهورِ، وأدناها النَّظَرُ؛ وهو تَوَجُّه العَينِ إلى الشَّيءِ مِن دونِ رُؤيةٍ، وإنْ كانَ قد يَرِدُ النَّظرُ مُرادًا به التَّدبُّرُ مع رُؤيةِ الشَّيءِ[1].

ولِذا أوثِرَ إثباتُ النَّظرِ إلى المُشركينَ؛ لِكَونِه أقلَّ مَراتِبِ الإدراكِ، ونُفيَ عنهُم أَشرَفُها في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

(1) محمّد محمّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 133 - 137.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 19 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-16-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 19 : المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-16-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6365726 بتاريخ 2024/02/07م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»